خواطر تنمويه

المحامي :
علي سلطان بن قضيب

إن أكبر استثمار للمال هو استثماره في بناء أجيال من المتعلّمين والمثقفين.
إن الإزدهار الحقيقي للدولة هو شبابها.
لقد تعلّمنا من هذا الازدهار أن نبني دولتنا من خلال التعليم والمعرفة وأن نرعى أجيالاً من الرجال والنساء المتعلمين.

المغفور له بإذن الله:
الشيخ زايد آل نهيان

مقدمة

لقد وضح الشيخ المؤسس زايد آل نهيان رحمه الله، حجر الأساس في بناء صرح الدولة، وسار على نهجه شيوخنا الكرام حفظهم الله، حتى تحققت المعجزة وصارت دولة الإمارات العربية المتحدة تحتل أكرم ركن وتتبوء مقعدا مرموقا بين الدول.

ومن هنا كان العمل المستمر أمرا لازما من أجل مزيد من التطور، هذا التطور الذي يقف الإنسان عنصرا هاما في تكوينه، لذا وتقديرا منا لقيمة هذا الإنسان نقدم تلك الخواطر التي تساعد على اكتشاف النفس والقبض على ميزاتها وتطويرها والهروب مما يُحبطها ويُقلل من فاعليتها.

العبور من الإخفاق

هناك ظواهر عديدة تردنا عن بلوغ الهدف، والامتناع السلبي أهمها، حين يحوينا الشعور بفقدان الثقة في القدرة على النجاح.
هذه الظاهرة تقمع القدرات، وتمنع الفرد من التطور، لافتقاد التجربة، فلا نجاح بدون فشل، بشرط الإقدام على تحقيق الجديد.
دعونا نعود بعقولنا لأيام الطفولة، حين ملئت آذاننا عبارة (لا تفعل)، حينها توهمنا أننا لا نستطيع، فأصبحنا نعيش على الهامش نتجرع كؤوس العجز حتى الثمالة.
إننا نفكر بالعقل الواعي, الذي يستقبل المعلومات ويحللها, فيقبل بعضها ويرفض البعض الآخر, وما يقبله, يقبله بالتبعية العقل الباطن (اللاشعور), ويعمل بموجبه فوراً. فكل ما نفكر فيه باستمرار يصبح جزءاً من عقلنا وسلوكنا, وحين نفكر بقوة بأننا نستطيع, فإن عقلنا الباطن يتوافق مع صورة عقلنا الواعي عن أنفسنا, وتتحقق النتيجة بالقدرة على الإنجاز, لأن ورائها مفهوم إيجابي عن الذات, يدعمه تصميم من اللاشعور, على بلوغ الهدف.
والفرق بين ذات ناضجة وأخري غير ناضجة, هو قبول المسئولية, بمعنى تحملها سواء نجحت أو فشلت. وللأسف حياتنا مرتع للهروب من المواجهة والتبرير المخزي لكل إخفاق, فازدياد المرض نرجعه لفشل الطبيب, واقتراف الجرائم نرجعه لطفولة بائسة, والخطأ نرجعه للسهو, وكل نتيجة سيئة نقابلها بتبرير جاهز يعني عدم قبولنا للمسئولية رغم أننا مسئولون حتى النخاع.
إن التخلص من الإخفاق يقتضي مفهوماً إيجابياً عن الذات, وقبول بتحمل المسئولية, حينها فقط سنمتلك الضبط والتوجيه والتحكم في حياتنا.

المارد الكامن في الأعماق

كل فرد لديه تفوق في ناحية ما، ويستطيع أن يستخرج من نفسه قدرات أكثر مما يستغله الأن.

والأصل أن أية قدرة تكمن بداخلنا ولا نستخدمها، فإننا نفقدها، واستثناء من ذلك قدرة الابتكار والإبداع فلا تفقد، ولا تضيع مهما أهملنا استخدامها، لأنها كامنة متغلغلة في أعماق أنفسنا تحتاج الإشارة لتخترق الحواجز وتنطلق نحو النور.

هذه القدرة الخفية، قدرة عقلية ليست ضمن الوعي، لكنها فوق الوعي، والدليل أنك، تُفاجأ بفكرة هائلة لحل مشكلة طارئة تقتحم حياتك، ولا تدري كيف جاءت؟ فينالك العجب ويتولاك الذهول، لكنها القدرة الحقيقية الكامنة في نفسك التي تنقلك على جناح السرعة لأهدافك التي ترنو إليها.

والفرق بيننا وبين العباقرة ليس افتقادنا لأفكارهم العظيمة، إنما الفرق أننا لا نعطي الثقة لما يخطر ببالنا من أفكار قد تقلب الموازين لو سمحنا لها بالخروج إلى حيز الواقع.

فالإبداع ليس مرتبطاً بالذكاء، إنما مرتبط بالتجديد وخلق طريقة لم تكن معروفة من قبل.

الإبداع هو الكيف الذي يوزن بالذهب، وليس الكم من الذهب الذي يملأ الخزائن، فحينما كنا نحلم بزيادة الرصيد ومضاعفة الدخل، كنا نضاعف جهدنا لنحصل على المال، ولكن الجهد المبذول أصبح شيئا من الماضي حين كانت العضلات ركيزة النجاح، وصار التطور الذي حوى حياتنا حتى النخاع لا يعرف سبيلاً للتقدم سوى الابتكار والإبداع، ولم يعد لسطحية المادة انفراداً، فلا قيمة للمال إذا تملكته الحيوانات، خاصة وأن الزمن قادر على إنهاء الرصيد وعاجز عن محو الإبداع.

الناقد والناقم
ومرضى "الباريدوليا"

الكمال لله وحده, وجميع مخلوقاته عُرضة للنقد, ومن يزعم أنه فوق النقد, فهو غبي محدود الأُفق, ذلك لأن العالم يتسع فقط لسعة الأفق, ولا مكان فيه لأسرى تصوراتهم الضيقة حول الأشياء, لأن النقص صفة جامعة لكل الخلق, سلوكياتهم يُؤخذ منها ويُرد, باعتبارها تجربة قابلة للنقاش وإبداء الرأي, من أجل محاصرة القصور والقضاء على الخلل, ومن هنا تنبت الحكمة.

هكذا يكون التطور, والإسهام في الحضارة الإنسانية, وإثراء الفكر البشري وتجربته, فيحدث التقويم, ويتم بلوغ الهدف وتحقيق النفع.

وجميع التجارب البشرية تحتاج التناول بعقل ناقد, من أجل تطويرها والاستفادة منها, شريطة أن يكون قادراً على تمييز الجيد من الرديء, خبراته ومعارفه تمكنه من التقييم, ولا يبغي من نقده إلا تقويم التجربة, بروح دافعة لإنجاحها, من خلال الإشادة بإيجابياتها وإبرازها, وتحديد سلبياتها بموضوعية, بعيدة عن الاعتبارات الشخصية. وبذلك يُحقق التوازن لأنه يعي أن زيادة الثناء بغير استحقاق تملق واستجداء, وحجبه مع استحقاق حقد وافتراء, ومن ثم كانت الحاجة إليهم مُلحة, لتطوير معارف البشرية, وتقويم خطوات تجاربها, لأنهم يُسخرون رحلة عقولهم في مسراها ومعراجها نحو إدراك الحقيقة, التي تمثل الطريق الأوحد للعُلا.

غير أن التجربة كما تحظى بناقد فيطورها, تُبلى بناقم يحاول طمسها, والقضاء على محاسنها, رغم ما بها من نواقص يتفق مع طبائع الأمور.

هذا الناقم أرضع الحقد عروقه، فتأصل حتى احتواه وسلبه موهبة الإدراك، يمضغ فشله ويجتره إلى حقد رخيص وحسد أكال، حين يتلبسه جن الرغبات المكبوتة، فيتصيد الفرص لإرواء حقده، ويختلق الأكاذيب، التي لا يراها غيره، كمريض الباريدوليا الذي يستجيب عقله لمُحفز عشوائي، فيدرك نمطاً معينًا غير موجود إلا في خياله المريض، فيتشدق به، ليل نهار، معتقدًا بذلك أنه مفكر ثوري أو رجل إصلاحي، وهو ساذج يتقطر تفاهة، وعاطل عن جاذبية الإقناع، استولى عليه الحقد وتقيحت نفسه بالسخط، لأنه لا يبغي الخير ولا الإصلاح، إنما يرنو إلى لفت الأنظار إليه، أو البحث عن دور وهو معدوم القدرات، أو الانتقام لتجاهله من أصحاب التجربة، أو تدفعه الغيرة من آخر أصلح منه أسهم في التجربة، فيُسلط لسانه
ليتقيأ شعارات زائفة محتواها فارغ، لأنها ولدت من وحي الحقد والحنق، ، فصار كلامه فاضحاً لقُبحه، وقُبحه فاضحًا لأغراضه الدنيئة.

إن الناقم ساخط طوال الوقت، يعيش حيث تشتعل الأحقاد وتضطرم الرغبات، وتتأرجح الغرائز، كلامه كالسحر الأسود الذي حول به سحرة فرعون العصى إلى ثعابين، وحقده مرافق له، يعجز الماء النقي عن تطهير روحه التي لُوثت بالكراهية، ذلك لأن الغيرة تملكت عقله وروحه، ومتى دخلت الغيرة، خرجت الحقيقة من الرأس.

إنه إنسان ينزف من الداخل، يهدم ولا يبني، يعيش حياة تعسه، فلا يلحظ إلا السلبيات، ولا يُقدر الجهود، ولا يرى الإحسان ولا يعرف الشُكر ولا يعترف بالفضل، يعيش في خواء روحي، ناكر للجمال والجميل، يبحث عن أمثاله ليتباروا على وسائل التواصل الاجتماعي في هدم التجارب، وتنعق صفحاتهم بأكاذيب مغلفة بشعارات رنانة، كصراع حيوانات على منطقة نفوذ، أدواته الناب والمخلب، أو كدُمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء حجاب، لا هدف لهم إلا القضاء على كل إنجاز والتقليل منه، غير أنه مهما علا ضجيجهم، فإنه بلا طحين، لأنهم يعيشون بين الناس كجثة عفنة لا يداريها التراب، كلماتهم تفتقد القيمة لأنهم بلا قيمة، ورأيهم لقيط غريب الأبوين لأنه وُلد عن سخط وكُره ابن لحظة حقد راسخة في أرواحهم، ما مخضته بطن، ولا يتجاوز صدى صوت في كهف منعزل على أطراف المريخ.

إن الإنجاز وتحقيق نجاح التجربة رهن الاستماع لكل ناقد أمين, وتجاهل كل ناقم مريض, واستثمار قدرات مبدعينا ومفكرينا, وذوي الوعي والرأي الراجح, وهذه سمات المجتمع الناجح, السائر بخطى حثيثة نحو شمس المستقبل.

يجب أن نثق في قدراتنا وأن نلتف حول فكرة صادقة تخدم الوطن, نصم آذاننا أمام بهلوانات الرأي ومُدعي الفهم, فمصيرهم الزوال أو التضاؤل كقطرة ماء في متاهة بحر, لأن كراهيتهم للآخرين ولدت يوم ولدت كراهيتهم لأنفسهم.
تذكروا أن الباقي من الإنسان هو أثره النافع لبني جنسه, وخلاف ذلك مكتوب عليه الفناء مع الجسد, وسيُجمع الكل أمام عزيز مقتدر, فيجزي كل شخص بعمله.
أضمروا الخير فإنه الباقي, وكما تضمرون في أنفسكم تسير حياتكم.

برمجة العقل الباطن

أحيانا تطالعنا الصحف, وتنعق وسائل الإعلام بوقائع وجرائم عصية على كل سوي, غريبة على فطرة الإنسان, غريبة على مجتمعنا وما تربينا عليه، هذه الوقائع كشفت حقيقة أرواحنا المهترئة, وعقولنا الباطنة التي تمرست على القبح, بسبب مشاغل الدنيا وصراعاتها ومحنها, التي سلبتنا موهبة الحب.

ومن ثم صارت الحاجة ملحة, لبرمجة عقلنا الباطن على الإيجابية والنفع, حتى تُلجم ثورة تلك الممارسات التي شرعت في التهام حضارة الإنسان.

والعقل الباطن هو الجزء الذي يُخزن المعلومات ويُعيدها إلى العقل الواعي عند الحاجة إليها, ومن ثم فهو المحرك الحقيقي للأحداث, والموجه لسلوكياتنا, بحسب التجارب السابقة التي يُخزنها, حيث يقيس عليها ثم يُحدد - في كثير من الأوقات - ردة الفعل دون أن يستشير الوعي.

من أجل ذلك كانت برمجته غاية مهمة, في طريق إعادة الإنسان إلى رشده, غير أن تلك الغاية تحكمها قوانين يعمل العقل الباطن في إطارها, فكل ما تفكر فيه يتسع وينتشر من نفس نوعه ويُضيف إليه كل ما هو مثله, فلو فكرت في الحقد سيتسع الحقد ويُضيف عليه الكره, فيتولاك التوتر, وتركيزك في شيء يجعل عقلك يلغي ما دونه ليفسح المجال لتعطيه حقه في التركيز, فإذا ركزت على السعادة فسوف تغمرك الإيجابية, وسيلغي عقلك كل ما يدعو إلى التعاسة.

إن نظرتك للعالم الخارجي هي انعكاس لما بداخلك, ذلك لأن الحياة انعكاس لأفكارنا ومعتقداتنا, فإذا أردت عالما جميلا اجعل ما بداخلك إيجابيا, وتأكد أن كل ما تفكر فيه ينجذب إليك, وكل ما تعتقد فيه سيتحقق مهما تأخرت النتيجة, فالاعتقاد هو القوة الراسخة التي تدعم الأفكار التي تختارها وتحقق النتائج وتجعل حياتك مرآة لفكرك.

وتذكر أن النتيجة من جنس الفعل, فلو أردت أن تكون ناجحا فافعل كل ما يقربك من النجاح, ثق بنفسك واجعل الأمل مدادا لجهدك, حينها ستبلغ وتنتصر.

إننا في حاجة إلى التمرس على الإيجابية, وذلك لن يتحقق إلا بالتكرار, تلك الطريقة القادرة على برمجة العقل الباطن نحو الأفضل, فتعلم الشيء واتقانه يولد من رحم التكرار, حيث تتراكم المهارات في الملفات الذهنية الخاصة بها وتساعد الإنسان على التقدم والتطور.

وتلك قاعدة نفسية معتبرة "إن ما تمارسه يوميا سوف تتقنه بكفاءة عالية", فعندما تمارس الكره ستكره كل شيء, تعاني نزيفا داخليا, تصبح سجين قفصك الصدري, شراايينك مسدودة وقلبك يطفح غلا, عاجز عن التواصل مع الآخر.

وعندما تمارس الغضب ستثور لأتفه الأسباب, ومن ثم فأرواحنا في حاجة لممارسة الطمأنينة لتنعم بالسكينة, وقلوبنا في حاجة لممارسة الحب لتفيض سعادة, وأمنياتنا في حاجة لممارسة الأمل لتُحقق الإنجاز, وجهودنا في حاجة للثقة بأنفسنا لتبلُغ النجاح.

لذلك نحن في حاجة لأن نسمح لمشاعرنا أن تنمو تجاه كل ما هو إيجابي, وأن تبتعد عن الرؤى السلبية التي تتلاعب في خيالنا وتمزق حبال أعصابنا, وذلك لن يتحقق إلا إذا استمرينا في تخيل أحلامنا وتصورها حتى تصبح شاخصة على أرض الواقع, وفكرنا في كل جميل لينطبع أثره بداخلنا فنرى ما حولنا يفيض جمالا.

لابد وأن نقطع الطريق على الأفكار السلبية, لأنها بمثابة زحف مغولي لا يرحم, يهدم النفس ويحرق الروح ويجمد القلب ويقتلع الأمل من جذوره.

نحتاج فيض حب من نبع رائق, حتى لا نتضاءل كقطرة ماء في متاهة بحر, أو نصبح دمى خشبية تحركها خيوط القبح من وراء ستار المسخ, فالحب قرار, والسعادة قرار والكره قرار, والتعاسة قرار, فاصنع قرارا يعبر عن داخلك, حينها سترى الدنيا بعين قرارك, وراقب عاداتك لأنها مرآة شخصيتك التي ستحدد مصيرك, وتذكر أنه لا قيمة لوجه جميل بروح خبيثة.

حقل الألماس

يحكى أن مزارعاً عمل في مزرعته حتى صار عجوزاً، ثم سمع أن كثيراً من الناس يبحثون عن الألماس ويجدونه فيحققون به الغنى. تحمس الرجل وباع حقله وأخذ يبحث عن الألماس دون جدوى، حتى نسيه الوقت، وتسلق التعب ساقه، وتغلغلت الآلام في عظامه، وتملكه اليأس فألقى نفسه في البحر. غير أن المزارع الجديد الذي اشترى المزرعة من العجوز، وجد ألماسة تحتها ثم وجد ثانية فثالثة، حتى تبين أن المزرعة عبارة عن حقل قائم على منجم ألماس. المثير أن المزارع العجوز بحث عن الألماس في كل مكان إلا حقله، ولعله أبصر ألماسة لكنه لم يهتم بها لأنها بدت كقطعة فحم، وغاب عنه أنها فقط تحتاج إلى القطع والتشكيل والصقل لتحقق له الغنى المنشود.

وحالنا المعاصر كحال المزارع العجوز، التفوق تحت أقدامنا قريب منا ولا نبصره.
إن كل إنسان على الإطلاق، قادر على التميز في مجال ما، وتقبع بداخله منطقة للتفوق، كحقل ألماس يحتاج اكتشافه ليضع فيه كل طاقاته، لاسيما وأن ينابيع النفس متجددة لا تجف ما دامت تحويها الحياة، بشرط أن تتعافى من الجلطة النفسية التي يتوقف فيها الزمن حول نقطة معينة، فلا يتحرك صاحبها ويبقى جامداً في حياة غير جامدة، تتطور وتتحرك كقطار لا يرحم ويفتت لحمه، ويكبله على القضبان هاجس المحافظة على توازنه الحاضر، فلا يميل إلى التطوير وكلما أحس بقدومه أصر على التوقف رافضاً وضعاً جديداً هو أرقى من حالته الحاضرة وأفضل من وضعه المعاصر.

إن من يفهم نفسه هو أكثر الناس ذكاء، ومن يملك زمامها أكثرهم قوة، ومن يوظف قدراتها أكثرهم عقلاً. والعقل قادر على أن يصنع من الجحيم نعيماً ومن النعيم جحيماً، وهذه أروع قدرة يمتلكها الإنسان حين يرسم هدفه في عقله بوضوح فيحققه، ولا يرضى إلا بالأفضل فيحصل عليه، مضاعفاً طالما كان جهده منظماً. والذي يسعى نحو الإنجاز في المجال المناسب لميزاته، يتخطى إنجازه تلك الميزات، بل إن صحته النفسية وقدرته الإنتاجية ترتفع، وتحقق المستحيل، وبدون تقدير للذات وبدون الوقوف على مكامن تفوقها، تفقد قيمتها فتصير جثة وإن كانت غير هامدة.

لذا لابد وأن نبحث عن مكامن الألماس في أعماق نفوسنا, ونصقلها حتى نتطلع للمستقبل بعيون ندية كلها ضوء, وبروح تتدفق منها الحياة فتمسح عن نفوسنا صدأ الاستسلام وتنفض عن وجوهنا رماد اليأس. بإيمان راسخ بإمكانياتنا يستند على صخر لا يتزعزع, ليعلم من أراد أن يقتل مستقبلنا, أن أحلامنا ستسحقه حين ينبثق من ثناياها الغد.

حيوان ذو تاريخ

الإنسان كائن حي, يأكل ويشرب ويتزاوج وينام كغيره من الحيوانات, إلا أن هناك ما يميزه عن تلك الكائنات, ارتقى به فجعله سيدا يحكمها ويحكم الجماد ويروض الطبيعة لخدمته.

وحار العلماء كثيرا حول ماهية هذه الميزة وطبيعتها, فقيل أن ما يميزه أنه حيوان ناطق , فنطق الببغاء , فقيل أنه حيوان ضاحك, فضحكت القرود, فقيل أنه حيوان يعقل فتبين أن جميع الحيوانات تعقل وإن كانت تعقل بدرجات متفاوتة تختلف من حيوان لآخر.

إذا فما هي تلك الميزة التي جعلت من هذا الكائن ملكا على عرش الأحياء؟
إنه التاريخ, فالإنسان حيوان ذو تاريخ . كل جيل من البشر يعرف تاريخ أسلافه ويتعلم منه بعد استنباط عبره فيتطور , وهذا ما يفتقده الحيوان . فالجمل الذي كان يعيش منذ آلاف السنين هو نفس الجمل الذي نشاهده الآن لا يختلف عن سلالة أجداده في الصفات والطباع ونوع الحياة.

وتأكيدا لذلك المعنى , يمكنك اصطياد الفأر الذي يعبث بمنزلك بنفس الطريقة التي اصطدت بها أقرانه منذ فترة, فقط بمصيدة وقطعة جبن, ولو كان لديك عشرة فئران تستطيع اصطيادهم بنفس الطريقة, لأن الفئران ليس لها تاريخ ولا تجارب تدركها لتتعلم منها إشكاليات الماضي, لكن الإنسان عكس ذلك يعرف ما أصاب أسلافه, فيتجنب زلاتهم ويتخطى عقباتهم ويتعلم من تجاربهم ويجود أعمالهم ويضيف على اكتشافاتهم, فلا يبدأ من جديد وإنما من حيث انتهي الأجداد, وهذا هو عين التقدم.

لكنه لن يتقدم إلا إذا قرأ التاريخ جيدا وأدرك مغزاه وسر تطوره واتجاه خطواته, فلا يكفيه قراءته بغير وعي لمجرد معرفة حكاياته, لابد من استخلاص العبر من أحداثه ومعرفة دلالاتها .
إن التاريخ هو معيار التميز بين الإنسان الواعي وغير الواعي, فالإنسان غير الواعي لا يرى إلا قطعة الجبن, أما الإنسان الواعي فيرى قطعة الجبن ويرى المصيدة.

زرعنا والحصاد

كعادته عاد لبيته متأخراً, لكنه كان سعيداً حيث انتهى من بناء قصره الجديد الذي سيسكنه وعائلته قريباً. قابلته الزوجة بفتور كعادتها وسلمته خطاباً أرسل إليه من مدرسة ابنه, يطلبون حضوره للأهمية.

استيقظ مبكراً وتوجه للمدرسة ليستطلع الأمر وكانت المفاجأة, اخبروه أن ابنه ضبط متلبساً بسرقة متعلقات من حقائب زملائه. تولاه الذهول وألجم لسانه في حلقه من هول الصدمة التي اقتلعت من حياته مائة عام, وتملكته غمامة حجبت عن بصره وبصيرته أفق الأمل, حين مرقت في مخيلته صور مزعجة يتصدرها مشهد ابنه قابع خلف القضبان. حينها أدرك أنه بنى قصراً وهدم طفلاً.

إن جرائم الإنسان تبدأ بإهمال الأطفال, والجاني هم الآباء اللذين انشغلوا عنهم بمكاسب زائلة, وتخلوا عن دورهم الذي يتمثل في تغذية شعورهم بتقدير النفس.
ومما لا شك فيه أن نجاح الأبوين هو بمقدار نجاحهما في تكريس تقدير أطفالهم لذاتهم, فلا شيء يعادل ذلك أهمية وهذا يتطلب سيلاً متدفقاً من الحب الدائم بعيداً عن النقد المهين, لأنه أكثر تحطيما وضرراً.

وإذا أخطأت ونقدتهم بإهانة فاعتذر لهم لترفع عن كاهلهم عبئاً ثقيلاً هو حمل الشعور بالذنب وواجبك أن تتقبل أنت حمل هذا العبء. واعتذارك ليس ضعفاً كما يروج الجهلاء, إنما هو قوة تخلص طفلك من قيد الذنب. إن أطفالنا في حاجة لجو عائلي دافئ واهتمام مركز ووقت كاف للنقاش والسمر بلا تليفزيون ولا انترنت, فاجعلوا حبكم لهم غير مشروط بسلوك معين, بل هبة خالصة تروي احتياجهم الفطري. واجعلوا أحضانكم ملجأ ومفراً لهم من شواغل الدنيا ورذائلها, ابنوا لهم كياناً قبل أن تبنوا لهم قصوراً, ليرحلوا للمستقبل في سفن فولاذية عصية على الانهيار, حتى لا تودعوهم رغماً عنكم قرباناً للانشغال.

وطالما كانت خيوط مصائرهم تتأرجح في قبضتنا, فاصنعوا منهم رجالاً وامنحوهم الثقة ليصنعوا لنا الإنجاز.

سندباد بلاد المنى

وسط ضباب الحواس وصخب الإثارة, وفوضى التواصل وانعدام التربية, تتبدل المفاهيم وتتغير المعاني فتستحيل الرؤية, ويلتبس الأمر, ويسيطر على واقعنا ممارسات معيبة عصية على المنطق وطبائع الأمور, فنطالع أحداث كاشفة لنفوس فقدت الحب, فصارت ميتة بلا أكفان. شاب يترك خطيبته ليلة الزفاف تأديبا لها ولأهلها, وفتاة تتخلى عن حبيبها لأنها وجدت الغنى, وصديق يكيل المعايب في صديقه, وجار يكره جاره, وموظف يحقد على زميله الناجح, وهكذا اشتعلت الحرب فوجدنا أنفسنا في صراع حيواني بالناب والمخلب, بعد أن أفلت الحب من شباك رؤيتنا المنحسرة, وصار راكداً في واقعنا ركود ريح ميتة, وإن تجسد صار محتواه فارغاً, على لسان دمىً شاخصة فوق ستار مسدلة.

تلك ممارسات الحب المزعوم, التي كشفت جسد الواقع المهترىء.

إنها الكارثة أن نحيا في مجتمع بلا حب, صارت فيه المسافات بين قلوب البشر أبعد من المسافات بين الكواكب. وأصبحت فيه الكراهية ظاهرة كجبل شاخص, بعد أن سلبتنا المحن موهبة الحب. فلا قيمة لوجه جميل, إذا كانت الروح خبيثة لا تدرك الحب, ولا معنى لتقاطيع ملائكية, إذا كانت تُخفي ملامح قردة لا قلب لها. فهذا الإنسان ينزف من الداخل, سجين في أعماقه, معتقل في قفصه الصدري, عاجز عن التواصل مع الآخر, لأن روحه مغلولة ودمائه تجلطت وقلبه يطفح غلاً.

ذلك لأن الكراهية تطفو على سطح نفس هي في الأصل تكره نفسها, تمضغ حسدها وتجتره, وتحوله إلى حقد أسود وحسد آكال, أول ما يأكل, يأكل صاحبه ويفتك به, فكما تضمر في نفسك تسير حياتك.

إننا بحاجة إلى إعلاء قيمة الحب, إلى إدراكه بمفهومه العام, باعتباره يورث الراحة والمودة والصداقة والسكينة, ويقضي على التشنج والكبرياء والعناد والغيرة السخيفة والشك الأحمق والرغبة في التسلط.

إنه موجود ولكنه مهدداً بالانقراض, يحتاج رعاية واهتمام, يحتاج ثقافة تبدأ من الأسرة حين تربي أطفالها, والمدرسة حين تعلمهم أبجديات الحرف, والإعلام حين يقدم لهم المثل والقدوة, بعيداً عن العنف ونماذجه الشاذة.

أطفالنا بحاجة إلى إدراك الحب, بعد أن سلبهم عبده موته إكسير الحياة, فجهلوا مقامهم, وصارت عقولهم مرآة للسراب, وروحهم مرتعاً للأشباح. فبالحب نطول سماء الأمنيات, ونرى أوسع من احداقنا, نجدل حبل الأمل طوال النهار, لنشنق فيه تصاريف الحقد والحسد واليأس, ثم ننام لنغوص في أحلام تفيض من نبع رائق.

إنه سندباد البحر الجسور, القادر على تخطي الصعاب, والمرور فوق إشكاليات الحياة, والوصول بأرواحنا لبلاد الأمنيات الجميلة, حيث ينتظرنا من نفىء إليه, بحثاً عن الظل والراحة.

سيرك المجاذيب

في شهر رمضان من كل عام يتجدد موعدنا مع الأعمال الدرامية من مختلف الدول ، أعمال محلية وأجنبية، يتبارى فيها المنتجون وكُتاب السيناريو, في تقديم ما لديهم من أعمال. ولا شك أن الإنتاج الدرامي يمثل قطاعاً مهماً من الإنتاج الإعلامي, لما له من قدرة على تحقيق قدر ملموس من التغيير الاجتماعي والثقافي في المجتمع.

وللأسف فكثير من هذه الأعمال لا تمثل إلا مشهد عبثي من مسرح لا معقول. نوع من القتل غدراً, دون أن تشعر, حيث تُشنق فيه العقول بحبال من حرير, ويُسحق فيه الخيال بوقائع مفزعة, تتصدرها مشاهد التفنن في القتل والانتقام, حتى باتت عقولنا مصلوبة على فكرة واحدة لا تبرحها, عنوانها مزيج من الجريمة والعنف والتمرد والانحراف والخيانة. حتى الدراما الكوميدية, بُلينا بمجموعة من الوجوه الكالحة, التي افتقدت لأبجديات الإبداع الكوميدي, بظلهم القاتم ثقيل الوطأة الذي اكتنف وجوههم وغطى ملامحهم, فبدوا كصراصير غارقة في مستنقع من السماجة كلما حاولوا الخلاص منه ازدادوا غرقاً, حين ألقوا بتفاهتهم لتنام في أحضاننا في معركة يومية مصيرها العدم. فأي قيمة لدراما تقدم التفاهة, أو تروج للقتل والانحراف وتدعو للانتقام باعتباره الوسيلة المثلى لاسترداد الحقوق, وكأننا نعيش في غابة البقاء فيها للأقوى.

دراما لا تدرك جمال الكون وانسجامه, فتحول المتلقي إلى إنسان معتقل من الداخل, شرايينه مسدودة بالانتقام, وقلبه يطفح بالحقد. دراما من سيرك المجاذيب, تقوم على صراع حيواني بالناب والمخلب والأعضاء التناسلية, فتشكل تحدياً فجاً لثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا, وتمس سلوكيات فئات عمرية في مراحل خطيرة لما تقدمه من نماذج سيئة تمثل قيماً سلبية يساهم السيناريو في التعاطف معها, فتؤدي إلى انفصال المتلقي عن مشكلاته الواقعية وتعطل طرق العلاج والتنمية, نتيجة ما تخلفه من شروخ فكرية وثقافية في نفسه. ذلك لأنها دراما جعلت المسافات بين قلوب الناس أكبر من المسافات بين الكواكب, مثلها كمثل السحر الأسود الذي حول به سحرة فرعون العصى إلى ثعابين. لأنها دراما خبيثة بلا وعي, مسخ بلا إبداع, عمياء بلا رؤية, لا ترى سوى نسب المشاهدة وعوائد الإعلانات وليذهب المتلقي إلى الجحيم.

وتبرير صُناعها بأن ما يقدموه ما هو إلا انعكاس للواقع هو تبرير يفتقد النخوة والحياء, لأن التعبير عن الواقع لا بد وأن يكون في إطار محدد يساعد على تنمية الوعي والإدراك, دون أن يكون مجرد نقل أعمى للواقع بما يحمله من تدن في الألفاظ والسلوكيات.

ندرك أننا نعيش في عصر له وسائله وتقنياته القادرة على اختراق العقول, الأمر الذي يتطلب مواقف واعية وإجراءات مسئولة وخطوات جادة من قبل المعنيين بهذا الأمر وعلى رأسهم المنتجين وذلك بانتقاء نصوص قيمة, وبلدنا حُبلى بالمبدعين وإن افتقدوا للشهرة والواسطة لترى أعمالهم النور.

لابد وأن تعمل الدراما على حماية الهوية, بإبراز ثراء مجتمعاتنا بالعادات والتقاليد المهمة وإبراز شخصياته الناجحة لتكون القدوة الشاخصة أمام أبصارنا بدلاً من شخصيات هزلية ممسوخة روجت لها دراما تفتقد الضمير وتعطي ظهرها للمسئولية.

لابد وأن نحمي وقت المتلقي لا أن نقتله, وأن ننقذ شبابنا من شرك هذا الأخطبوط الذي لا يرحم, فحضارة الإنسان بماضيها وحاضرها ومستقبلها رهن عقول واعية وكلمة صادقة وعمل مخلص ينشد العُلا.

عقول لا تقبل الفــراغ

عقولنا كالفضاء لا تقبل الفراغ, إذا لم نملأها بأفكار إيجابية تقودنا للنجاح, فسوف تنقض عليها أفكار سلبية لتملأها وتستغل فراغها, فنصير نسياً منسياً.

ذلك لأن العقل البشري يمتلك فكرة واحدة في أي وقت, هي التي تملك إدارته وضبطه وتوجيهه, وبقدر ما نملأ عقولنا بالإيجاب بقدر ما نطرد من سلبية, شريطة أن نمهد لها ونؤمن بها حتى تصبح جوهر تفكيرنا, لأن الأفكار الإيجابية كالنباتات تحتاج رعاية, ولا نجاح لها بغير هدف وليد فكرة, ولا إنجاز بغير وضوح لهذا الهدف.

وكل ناجح حقق إنجازاً معتبراً لديه هوس بهدف معين, يحفز إمكانياته ويشعل نشاطه وييقظ عقله , فتتولد لديه الأفكار التي تخدم غرضه نحو تحقيق الهدف.

وأهم عقبات تحديد الهدف هو الخوف من الإخفاق, الذي يعد أكبر إشكالية تواجه النجاح, وللأسف لا ندرك أهمية الإخفاق في التمهيد للنجاح, لأن كل نجاح عظيم يسبقه إخفاق أعظم. وفي الوقت الذي يركن فيه البعض إلى البقاء في منطقة الأمان فيقبلون ركود وضعهم, فإن هناك من يخرجون من هذا الحيز الجاف يواجهون التحدي ويقبلون المجازفة, رغم أقاويل الإحباط التي تحيطهم, فيحققون شيئاً ثميناً يذهل متابعيهم, ويخرجون بذلك من عباءة الإذعان ولباس التصلب لحاضر أبرح ومستقبل يفوح برائحة الياسمين.

ففكروا في هدف ذا قيمة لتبنوا من خلاله مستقبل لكم ولأبنائكم, مستقبل تقوده عقول واعية لا تقبل الفراغ, تؤمن بأن الفكرة بلا هدف لا تعمل, والهدف بلا فكرة يضل الطريق.

فن اختيار الرجال

لا شيء يدل على حكمة المسئول وبراعته في الإدارة أكثر من اختياره لمعاونيه, حقيقة أدركها مفكرو الغرب أمثال ميكافيلي, كما أدركها أئمة المسلمين أمثال الإمام الطرطوشي, حين قال (إن حلية الملوك وزراؤهم). وأدركها شيوخنا فاجتهدوا وأصابوا في اختيار معاونيهم فتحقق الإنجاز على مستويات عديدة ومازال العمل ساريا.

وقد جاء القران بمناط اختيار الرجال, حين قال سبحانه في صورة القصص عن موسى عليه السلام(إن خير من استأجرت القوي الأمين), فكان الاختيار الصحيح قائم على معيارين لا غنى لأحدهما عن الآخر, معيار الكفاءة الفنية المتمثلة في القوة التي تعني المقدرة على القيام بأعباء الوظيفة, ومعيار الكفاءة الخلقية المتمثلة في الأمانة.

وتأكيدا لهذا المعنى, حينما ذهب أبي ذر الغفاري رضي الله عنه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليجعله أميرا على إحدى البلاد , رفض الرسول طلبه رغم انه كان من اتقى الناس وتتوافر فيه الكفاءة الخلقية لكنه كان يفتقد للقوة فافتقد معيار الكفاءة الفنية وأصبح غير أهل للاختيار.

من هنا فانه يجب على كل مسئول عن العمل أو الإدارة في أي مكان وأي مجال, أن يحسن اختيار معاونيه, لترتقي منظومة إدارته وتحقق الهدف المنشود في النفع العام, يجب ألا يجامل في اختياره, وإنما يضع نصب عينيه الكفاءة فقط.

لابد أن يعي أن المسئولية قيد وشرف والاختيار أمانة ومصير, تتقدم فيه المصلحة العامة على كل النزوات والاعتبارات الشخصية, حينها سيعطينا إدارة لا يدركها الوصف, ونهبه في ذاكرتنا أكرم ركن, لأن من يسيء الاختيار كمن يترك فؤادنا لحما في مناقير الغربان.

فن إدارة المواهب

إن تحقيق طفرة في الإنتاج لا يعتمد فقط على زيادة الموارد أو تفعيل دور الموارد البشرية بشكل تقليدي في إدارة المؤسسات, بل تخطاه إلى الاعتناء بالموهوبين من خلال استراتيجية تهدف إلى زيادة أعدادهم وتحقق الاستفادة القصوى من طاقاتهم, عن طريق برامج تعليم وتدريب وتطوير تحافظ على موهبتهم, وتديرها بشكل صحيح في إطار الاستثمار الناتج عن التنمية المستدامة. ومما لا شك فيه أن الموهبة هي قضية العصر الذي نعيشه, ذلك العصر الذي لا يعترف إلا بالعلم والتقنية والنبوغ المعرفي والتقدم المذهل, الذي تخطى الحواجز واعتمد على الإبداع وتغيير المألوف. لذلك فلا مكان فيه للمجتمعات النامية إلا إذا فتحت المجال أمام كل موهوب ليشارك بإبداعه في التنمية, وهيئت البيئة الملائمة لترجمة هذا الاستعداد إلى تفوق. ذلك بأن يتبوأ كل موهوب مقعده الذي يستحق, وأن يتوارى المدعون عن الأنظار, فلا يصح إلا الصحيح, ولا مجال للمواربة في ظل حرص شيوخنا (حفظهم الله) على التقدم.

وهناك العديد من التجارب التي أثبتت نجاحها في إدارة الموهوبين, كالتجربة الأسترالية التي تقدم برنامجا تقوم بتنفيذه سبع مدارس لتعليم الموهوبين, وهو برنامج "الطلاب ذوي القدرات العقلية العالية", ويهدف البرنامج في البداية إلى تدريب المعلمين على عمليات الكشف عن الموهوبين, مع التركيز على استراتيجيات التعليم لزيادة نواتج التعلم للطلاب الموهوبين في البيئات المحرومة, كل ذلك في إطار من العدالة العمياء التي لا ترى إلا الكفاءات ولا مجال لديها للمحسوبية والوساطة, تلك الآفات التي جعلت مواهبنا على الهامش رغم غزارتهم.

لذا نثمن دور قاداتنا أكرمهم الله وحرصهم على توفير الدعم المالي لبرامج مراكز الكشف عن الموهوبين, وتوفير المنح لتمكنهم من تنمية مواهبهم ومضاعفة قدراتهم, واهتمامهم بتقديم الرعاية العلمية والتعليمية على شكل برامج إثراءيه إضافية, وتقديم الرعاية النفسية والاجتماعية التي تحميهم من إشكاليات الواقع المحيط, كل ذلك في إطار برامج وخطط علمية مدروسة, قادرة على الدعم والتعليم والتدريب والتطوير, تقوم على إدارتها قيادات واعية تستثمر في الإنسان باعتباره فرس الرهان, وتعرف قيمة الإبداع في زمن طغى فيه المسخ.

قانون الجاذبية ودائرة الضوء

الإنسان مثل المغناطيس, يجذب إليه الأشخاص والأحداث والظروف, التي تتماشى مع طريقة تفكيره ورؤيته للحياة. فإذا أراد أن يغير محيطه من الأشخاص والأحداث والظروف, فعليه أن يغير طريقة تفكيره.

إن المتشائم حول نجاحه, يجذب إليه كل ما يحقق نتائجه السيئة, فيجعل واقعه ومستقبله فشلاً حتمياً. أما المتفائل, الحالم نحو المستقبل, يجذب الأشخاص والظروف والأحداث التي تحقق له نتائج طيبة, وتجعل له ركناً متقدماً في دائرة الضوء. لذلك نظرتك إلى نفسك ستحقق لك واقعاً يتجانس مع مدلولها, وفكرتك عن ذاتك هي التي ستشكل لك المستقبل, ولا تنسى أن الناجحون مواقفهم من أنفسهم ايجابية, وأن المواقف وليدة توقعاتك, فتوقعك بسوء الأمور وإشكاليات الغد, وعقد الحياة, والفشل المنتظر, سيجعل واقعك سيئاً بالفعل, والعكس بالعكس.

معنى هذا أنك إذا كنت قادراً على إقناع نفسك بقدرتها على انجاز أشياء كثيرة - حتى لو كانت توقعاتك وهماً- فإن نتيجتها لن تكون وهماً بل حقيقة, ستتحقق أمام عينيك المندهشة, لأن موقفك من نفسك هو الحقيقة دوماً, باعتبارك أقدر الناس على فهم أصلها واستطلاعها من المنابت والجذور حتى الفروع العالية.

لذا إن أردت أن ترفع مقدار ما تتوقعه من نفسك, فعليك أن تغير مفهومك عن ذاتك, وفكرتك عن نفسك, فتوقع النجاح نجاح, وتوقع الفشل نهاية. ومأساتنا أننا لا نتوقع من أنفسنا ما يكفي, فتموت أحلامنا رغم غزارة إمكانياتنا.

قانون الطبيعة مفتاح النجاح

حياتنا مليئة بالمشقة والعقبات التي نجتهد ونحاول تخطيها لنبلغ. هذا الجهد المبذول هو الذي يحافظ على نوعنا, ويطهرنا من وصمة الجمود, باعتبار الإنسانية مقاومة وليست استسلاما.

فالإنسان لا يكون إنسانا إلا لحظة المقاومة لشيء يحبه, أو لحظة التحمل لشيء يكرهه, لان حالة الاستسلام لكل النزوات, والانبطاح أمام الشهوات تمثل المعنى الحقيقي للآلية الحيوانية, فالسباحة ضد التيار هي التي تجعل من الإنسان سباحا ماهرا, أما من يستسلم للتيار بحيث يلقي به كيفما يشاء, فلا يعد إنسانا, إنما ريشة في مهب الريح, أو كيان ميت مسلوب الإرادة, لا فرق بينه وبين الجماد أو اللوح الذي تتقاذفه الأمواج.

حتى ارتكاب المعاصي نوعا من الاستسلام, فالشيطان لا يملك سلطان القهر ولا سلطان الإرادة, ولكنه من ضعفنا واستسلامنا وانعدام مقاومتنا ينفذ إلى القلب, فيزين لنا المعصية فنرتكبها طوعا.

ويقينا أن رحلة الوصول إلى الهدف قد تمر بمراحل ومحاولات فاشلة وجهود مبذولة هدرا, إلا أن تكرار المحاولة وعدم اليأس ومقاومة الصعاب, هم سر النجاح ومفتاح الوصول للمبتغى.

وواقعنا يشهد أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض قانون(الجهود المهدرة), ولا يتقبله أو يتعامل معه بالشكل الصحيح فلا يعي حتميته ولزومه, في الوقت الذي يتعامل معه الحيوان بالرضا والقبول, فالأسد مثلا ينجح فقط في ٢٥٪ من محاولاته للصيد, بينما يهدر ٧٥٪ من طاقته وجهوده دون جدوى, لكنه لا ييأس.

ولا يرجع تصميمه في النيل من فريسته إلى جوعه, وإنما يرجع لغريزة استقرت بداخله ووقرت في روحه تتمثل في استيعابه لقانون الجهود المهدرة. وملايين الحيوانات المنوية تفشل في التلقيح باستثناء واحد قد يلقح, ونصف مواليد الفئران تموت في مهدها, وجيوش من النمل تهلك من أجل الحصول على الطعام الذي يصل إليه البقية التي تقاوم, حتى الأمطار معظمها يهطل في المحيطات, وغيرها من الأمثلة التي تؤكد أنه قانون الطبيعة.

جميع المخلوقات لا تيأس ولا تستسلم ولا تكف عن إعادة المحاولة حين تفشل, حتى يتحقق لها ما تبتغيه وتنجح في النهاية, إلا الإنسان. فاليأس والاستسلام والتردد والتراخي, علامات سكون وتصلب تنتاب شعورنا بتفسيرات عدمية, تقطع بأن هناك فجوة في تكويننا, فجوة نراها بعين الشعور فنيأس ونستسلم ونتردد ونتراخى, فتصير قلوبنا كالقبر الضيق لا يصلح إلا للموت. في الوقت الذي تحتاج فيه الحياة جهدا كبيرا للوصول, هذا الوصول قد لا يكون إلا بعد محاولات إذا استسلمنا لها, انقطع سبيل النجاح وانعدم بلوغ الأمل, الذي لولاه لضاقت الدنيا.

فلن نعرف معنى الصمود إلا إذا ذقنا طعم السقوط, ولن نعرف معنى النجاح إلا إذا مررنا على طريق الفشل واكتوينا بناره.

علينا أن نطلق العنان لخيالنا لنبدع دون يأس أو تردد, فوراء كل خيال طرفا من الواقع, وأن نتحلى بالجرأة في تخطى المتاعب واقتحام الصعاب, لأنها ثمن التقدم, وجميع الفتوحات الجليلة ثواب الجرأة.

علينا أن نتقبل أخطاءنا, ونتخطى فشلنا وضياع مجهودنا, ونقاوم ونتطلع لمرحلة مقبلة أفضل, شعارها .. لا أبرح حتى أبلغ, لأن الحياة تقتل الخانعين.

كوارث ابن أمه

قد يبدأ الشخص حياته بازدهار، فيُحقق إنجازات ملموسة، غير أن تلك الإنجازات تستمد وجودها من رحم جهد مستمر، وعمل دؤوب، وحُسن إدارة متواصل، قائم على الموضوعية واختيار معاونين على قدر من الكفاءة، بعيدا عن العواطف أو المعايير السطحية التي لا تُقيم كيانا ناجحا.

وبغير تلك السلوكيات، يتبدل الحال ويصير الإنجاز والسبق، مجرد وهم أو قبض ريح لا قيمة له، وقد ينتهي الأمر بكارثة لا مثيل لها.

والتاريخ عامر بالقصص التي تقطع بهذه الحقيقة، وأشهرها تلك الأزمة التي ضربت مصر وسُميت بالشدة المستنصرية، التي كانت أشد كارثة مرت على البلاد طوال العصور، فألحقت بشعبها مجاعة مدمرة استمرت لسبع سنوات متصلة في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، في الفترة من ١٠٦٥م، وحتى ١٠٧١م.

غير أن هذه الأزمة كانت نتاجا طبيعيا لمقدمات كارثية، حين ترك الخليفة المستنصر بالله، أمه ترتع في أركان الحكم بغير ضابط، لاسيما بعد وفاة الوزير القوي أبي القاسم الجرجاني، فصار لها الكلمة الأولى في اختيار الوزراء والإشراف عليهم وعزلهم، ومن ثم صارت الدولة في يد أعوانها، وُلقبت بالسيدة الملكة والجهة الجليلة والستر الرفيع.

هذه الممارسات أذكت نار الحقد والعداوة والفتنة بين الوزراء وطوائف الجيش الذي اشتعلت بداخله الصراعات، خصوصا الأتراك المرتزقة الذين قوى سلطانهم برئاسة زعيمهم ناصر الدولة، ذلك الرجل الذي كان كارها لأم الخليفة بسبب تفضيلها لجنود من بني جنسها من السودان، حيث جاءت إلى مصر كجارية سوداء أهداها تاجر يهودي يدعى أبو سعد التستري للخليفة الظاهر، وبعد وفاة الأخير تقرب بمباركة الأم من المستنصر، خصوصا بعد وفاة الوزير أبي القاسم الجرجاني، وتولى نظارة الخاصة لأم الخليفة حتى قُتل على يد ثلاثة أتراك، مما تسبب في غضب الأم فأخذت في شراء العبيد السود وأكثرت منهم وبسطت لهم الأرزاق، وصار العبد بمصر يحكم حكم الولاة،

الأمر الذي تسبب في زيادة التذمر والحنق, فتحالف الجنود الأتراك مع الجنود البربر, حتى قاموا بطرد الجنود السودانيين من القاهرة وفرارهم إلى الصعيد, غير أنه حين وصولهم إلى الصعيد عاثوا فيه فسادا وتعمدوا إفساد نظام الري, لنشر الجفاف والفقر بعد انخفاض منسوب المياه, في الوقت الذي انقلب فيه الأتراك على البربر فغدروا بهم وقاموا بطردهم من القاهرة إلى وجه بحري, ثم قاموا بالاستيلاء على القاهرة ونهبوا قصور الخليفة فتقطعت أوصال المحروسة وانقطعت طرق نقل البضائع وعمت الفوضى وحل الخراب وبدأت المجاعة الكبرى, حين تصحرت الأرض وهلك الحرث والنسل, فتعذر وجود الأقوات, وارتفعت أسعار السلع بصورة غير طبيعية, لدرجة صار معها ثمن الرغيف خمسة عشر ديناراً, فخُطف من على رؤوس الخبازين, واضطر الناس إلى أكل الكلاب والقطط, والميتة منهما, والبحث عنهما لشرائهما, حتى أن بغلة وزير الخليفة لم تسلم من الأكل حين ذهب للتحقيق في حادثة وترك بغلته وحينما عاد لم يجدها بعد أن أكلها الناس.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تطور لما هو أبشع, حين صنع بعض الأهالي الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة من فوق الأسطح ثم أكلهم.

ولم يسلم الخليفة نفسه من تلك المجاعة, فاضطر لبيع رخام قبور أجداده, ومع ذلك ساء به الحال ولم يعد لديه ما يبيعه, حتى تصدقت عليه ابنة أحد العلماء, بينما نزحت أمه وبناته إلى بغداد.

وعن تلك الأزمة ذكر ابن إياس في كتابه "إغاثة الأمة بكشف الغُمة", أن الناس أكلت الميتة وأخذوا في أكل الأحياء, وصُنعت الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح.

كما ذكر المقريزي في كتابه "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" أنه ظهر الغلاء بمصر واشتد جوع الناس, لقلة الأقوات في الأعمال, وكثرة الفساد, وأكل الناس الجيفة والميتات ووقفوا في الطرقات فقتلوا من ظفروا به, وبيعت البيضة من بيض الدجاج بعشرة قراريط, وبلغت رواية الماء ديناراً, وبيع دار ثمنها تسعمائة دينار بتسعين دينار, اشترى بها دون تليس (شوال) دقيق, وعم مع الغلاء وباء شديد وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد, فانقطعت الطرقات براً وبحراً إلا بالخفارة الكبيرة, من ركوب الغرر, وبيع رغيف من الخبز زنته رطل في زقاق القناديل, كما تُباع التحف والطرق في النداء ..

خراج .. خراج, فبلغ أربعة عشر درهماً وبيع أردب قمح بثمانين دينار, ثم عُدم ذلك كله, وأُكلت الكلاب والقطط فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير.
ونتيجة تلك الأزمة أخذت دولة المستنصر بالله في التداعي والسقوط, وذلك بخروج العديد من البلدان من سلطانه, حيث عادت بغداد إلى الخلافة العباسية, وقُطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة, بينما خُطب للخليفة العباسي, ودخل النورمان صقلية, واستولوا عليها فخرجت عن حكم الفاطميين, كما تداعي حكمه في بلاد الشام, فاستقل قاضي صور بمدينته, وخرجت طرابلس عن سلطان الفاطميين, وتتابع ضياع المدن والقلاع فاستقلت حلب وبيت المقدس والرملة, ثم تبعتهم دمشق في العام التالي.

وأمام هذا الانهيار, استدعى الخليفة المستنصر , بدر الدين الجمالي, أمير الجيوش في الشام للتدخل وإنقاذ الدولة من السقوط, فوافق الرجل لكنه اشترط أن يأتي برجاله, وأن يفرض سلطته وأن يُعيد الأمور إلى نصابها بقوة السلاح, فوافق الخليفة بعد أن عينه وزيراً للدولة, وبالفعل جاء بقواته من الشام فسكنوا القاهرة, ثم أعاد بناء سور القاهرة لتقويته وزيادة مساحة المدينة.

ونظرا لما كان يتميز به الجمال من عدل ووعي وقدرة علي الإدارة فقد اهتم بشؤون الزراعة فعمل على إصلاح نظام الري, بعد أن قام بمحاربة الجنود المتناحرة وتمكن من طردهم خارج المحروسة, ثم جعل المحصول كله للفلاحين أول ثلاث سنوات ثم جمع الجباية في السنة الرابعة, كما استطاع التخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة, وبدأ في إعادة النظام إلى القاهرة وفرض الأمن والسكينة في ربوعها, وامتدت يده إلى بقية أقاليم مصر, فأعاد إليها الهدوء والاستقرار, وضرب بيد من حديد على يد العابثين والخارجين عن القانون, كما قام بتنظيم شئون الدولة وانعاش اقتصادها بتشجيع الفلاحين على الزراعة ورفع الأعباء المالية عنهم, بعد أن أصلح لهم الترع والجسور, فكثُرت الحبوب وتراجعت أسعارها, ونشطت حركة التجارة بسبب توافد التجار من كل مكان نتيجة تحقق الأمن والاستقرار في البلاد.

وبالفعل استطاع هذا الرجل الحكيم, انتشال الدولة الفاطمية من كبوتها, والمرور من تلك المجاعة الطاحنة بنجاع, فانقشعت الغمة في عامها السابع, ومن ثم خلد المصريون ذكراه بأن أطلقوا اسمه على أحد أشهر الأحياء في القاهرة وهو حي الجمالية, لتبقى هذه القصة شاخصة عبر الأزمان تفيض بالعبر التي تصلح لكل زمان ومكان, تمثل خير عظة لكل مسئول مهما تفاوتت حجم مسئولياته, فالقاعدة واحدة, التزم بها كل الناجحين مفادها, أن ولاة المسئول يدلون عليه, واختياره لمساعديه هو الذي يُحدد مسار مشروعه, فإما أن يُكلل بالنجاح حين يختار ذوي الكفاءة, أو ينتهي بالفشل إذا ما كانوا دون المستوى, ذلك لأن الإدارة هي عصب المشروع أيا كان شكله وتفصيلاته, ومن ثم فدورها جوهري في نجاحه, إذا ما حسُن ممارستها.

كما تقطع الحادثة, بحقيقة مفادها أنه مع الفقر تتآكل الأخلاق, لأنه يصنع لصوصا كما يصنع الحب شعراء, وهذا ما حدث مع سكان القاهرة حين ضربهم الفقر والجوع, فتحولت وجوههم إلى وجوه شقية كالحة مليئة بالإثم والجريمة, غطى الفقر فضائلهم وأشاع أفظع ما فيهم, وهذا نتاج حتمي لشعب تركه حاكمه فريسة للحوج, وانصرف مسئوليه للكيد والكره وصنع الفتن وإثارة المشاكل, فيكيف يتسنى للأمان أو الاستقرار أو الراحة أن يعيشوا بين أنياب الفقر والجوع, غير أن الحال تبدل حينما صلح أمر المساعدين, فصلح أمر الرعية, وزالت الغُمة وصارت ذكرى يتداولها اللاحقون.

تلك العبر كانت ومازالت في ذهن وعقل قياداتنا الحكيمة، الذين اجتهدوا ومازالوا ليكون لبلدنا مكانا مرموقا بين الدول فتحققت نهضة أقرب للإعجاز في زمن قصير نتيجة اختيار قيادات واعية بمسئولياتها، ومازال العمل مستمرا تنفيذا لتوجيهات الراحل المؤسس الشيخ زايد رحمه الله.

إن الحياة قصيرة تُطوى كلفافة تبغ تحترق وهي ترقد باسترخاء في فم عاهرة, ومن ثم فلا أحد ينتصر خارج بوتقة التقاسم, والتشارك, والعدل والمساواة وتكافؤ الفرص, لاسيما وأننا إلى زوال, سننزل إلى أعماق الأرض, وستخضر بطوننا وتنتفخ, ثم نصير وجبة شهية للديدان.

نظارة العقل

مع تطور الحياة وتعقيدات الواقع خيم على البعض إحساس بالظلمة والجدب والعقم المطلق, فعاشوا حياة تعانق الموت, كلما حاولوا حل التعقيد فشلوا حتى يأسوا وتراجعوا. ذلك لأن فكرهم مازال تقليداً والأمر يحتاج ابتكاراً وتفكيراً خارج الصندوق.

إن من يريد التميز لابد وأن يطور ما لديه من منظور أو بارادايم, والبرادايم اصطلاحاً يعني الانطباع, أو رؤيتنا للأشياء وحكمنا عليها. لأنه الثقافة التي ترسخت في عقولنا وصارت تتحكم في تصرفاتنا في المواقف المختلفة, بمعنى أنه نظارة العقل التي نرى من خلالها الحياة, وتشمل مكتسباتنا وخبراتنا ومعتقداتنا السابقة التي ترسم حدود مستقبلنا. وكثير منا تسيطر عليه معتقدات خاطئة وأفكار سطحية تفيض جهلاً, اكتسبها من ماض يفتقد مقومات الإدراك, لما شابه من نواقص أصابت التربية أو التعليم, فنظروا للواقع بسلبية كتمثال رابض ومكبل بأغلال الماضي يمضغ استسلاماً لا يريد له الزوال, فطحن عقولهم الجمود والعدم, كنقطة عائمة في زرقة بلا حدود لا يربطهم بعالم الإنجاز أي رابط. يصرخون في البرية ويحملون على ظهورهم أوزار الماضي دون أن يرتجوا الخير أو يتطلعوا إلى المستقبل ليبرأ حاضرهم من الشبهة.

إن طوق النجاة من هذا المصير الأسود يحتاج تطوير رؤيتنا للأشياء واستبدال سلبيتنا بمنظور إيجابي لتصير الأحلام حقيقة, وهذا ليس بالعسير طالما وهبنا الله القدرة على التحكم بعقولنا. الأمر يحتاج مزيداً من المعارف لتحصيل المعلومات واكتساب الخبرات بتنويعها وتحديثها, بالتعرف على أشخاص جدد يفكرون بشكل مختلف, مع تنويع الأسفار وتغيير الأماكن للتعرف على طبائع البشر وإن اختلفوا عنا للاستفادة من تجاربهم في تطوير حاضرنا. نحتاج فك قيد خيالنا والسماح له بالتحليق في سماء الأمل, فأحلامنا تحتاج يد ترفعها إلى مرتبة الواقع, اسمها اليقين في الله والثقة في النفس. استمعوا إلى آراء الجميع لتسدوا نواقصكم, اخطبوا ود المستقبل بطموح راسخ وإنجاز ينتظر وراء الغيب, صمموا على الإنجاز وجاهدوا من أجل تحقيقه, فما جدوى نجاح بلا مكابدة, وانجاز بلا ابتلاء إلا أن تكون مراهقة تتوشح تفاهة بلا معنى. سنعتصر من ضرع الماضي ما يقومنا على طريق المستقبل, وبمقدورنا أن نمضي في خيالنا فنخلق من العدم ما نشاء, حتى لا يتغفلنا الماضي, ويتآمر المستقبل على بلاهتنا.

وحشية الإنسان

"البيوت أسرار", حقيقة ثابتة, تؤكد أن بداخل كل بيت, أسرار غائبة عن العلن, لا يعلم عنها شيء إلا الله, إلا أن القاسم المشترك في أغلب تلك الأسرار, يرجع إلى خوف أصحاب البيت من الفضائح وجعل حياتهم عُرضة لكلام الناس بصورة مُهينة, خصوصا لو كانت هذا البيت يخص أسرة ذائعة الصيت أو الغنى, فمثل هؤلاء لديهم حساسية بالغة من خروج أسرارهم إلى العامة, ليظلوا محتفظين بصورتهم الراقية المحترمة, التي حُفرت في أذهان الناس, ومن ثم فهم يسعون دوما لإخفاء كل خبر أو واقعة تُقلل من هذه الصورة أو تزدريها, حتى ولو كان الثمن حياة أحد أفرادها.

وهذه الفكرة كانت محور مأساة أظهرت قدرة الإنسان على التحول من الأدمية السوية إلى الوحشية المُفرطة, وبينت أنانيته الفجة, واستعداده التام للتخلي عن كل غال من أجل ذاته, التي يُقدم لها القرابين مهما تكلف الأمر, ففي النهاية البقاء لنفسه والحفاظ على ماله أو سلطته, هو الغاية التي يرتكب من أجلها جرائم غائبة عن شر إبليس.

تبدأ المأساة في عام ١٩٠١م, حينما وردت رسالة من مجهول لمكتب المدعي العام في باريس نصها:

(المدعي العام: يُشرفني إخبارك بحدوث أمر استثنائي بشكل استثنائي, أتحدث عن العانس المحبوسة في منزل مدام لويز مونبيه دون طعام, وتعيش على القمامة منذ خمسة وعشرون عاماً, أرجو منكم إنقاذها).

كانت الرسالة صدمة قوية للمدعي العام والشرطة, ذلك لأن السيدة لويز من وجوه المجتمع الباريسي الراقي, لذا تشككوا في صدق هذه الرسالة لأنها تتعلق بعائلة مونبيه العريقة النبيلة, ولا يُعقل أن يصدر من أحد أفرادها مثل هذه الأفعال المجرمة.

إلا أن الهواجس ظلت تطارد عقل المدعي العام فحرمته من النوم, الأمر الذي جعله يضع حدا لتلك الشكوك, فأمر بتفتيش منزل العائلة, وعلى الفور انتقلت الشرطة إلى المنزل, وبدأوا في تفتيشه غير أنهم سمعوا أنات مكتومة تصدر من مكان ما في الطابق العلوي من المنزل, فأسرعوا ناحيته, حتي تأكدوا من صدوره من إحدى الغرف, فكسروا بابها, وحينها فُتحت عليهم طاقة من جحيم.

ذُهل الضابط ومن معه من هول ما رأوه, الغرفة مظلمة تنبعث منها رائحة كريهة, والغبار يملأ المكان, والستائر سقطت بمجرد فتح الباب لقدمها واهترائها, فأسرع أحد الجنود وفتح النافذة, فكانت الصدمة الأكبر حينما وجدوا الفتاة (بلانش مونبيه) ابنة مدام لويز, حيث كانت في حالة يرثى لها, شبح امرأة نحيفة تبرز عظامها فيكاد ينفر من الجلد, عارية تماما, ترقد على سرير مغطاة بغطاء متسخ ومن حولها البراز وبقايا الطعام الفاسد, والحشرات والفئران ترتع في أركان الغرفة بصورة تدعو إلى الفزع.

ولسوء حالة الفتاة التي كان وزنها في ذلك الوقت ٢٥ كيلو جرام, ظن الضابط أنها تحتضر, فأمر على الفور بنقلها لأقرب مستشفى لإنقاذها من الموت, في الوقت التي كانت فيه مدام لويز جالسة بهدوء في بهو المنزل تُطرز قطعة من القماش وكأن شيئا لم يكن.

بعدها بدأت خيوط المأساة تتضح ونواة القصة تتشكل, حيث تعود المأساة لعام ١٨٧٥م, عندما كان عُمر بلانش ٢٥ عاماً, حيث تعرفت وقتها على محام يسكن بالقرب منها, ثم نشأت بينهما قصة حب, على أثرها تقدم الشاب للأسرة لخطبتها, إلا أنه قوبل برفض شديد من والديها وتم طرده من البيت بصورة مُهينة, ومع ذلك لم ييأس وحاول أكثر من مرة لكنه فشل.

كان السبب في الرفض هو الاختلاف الطبقي والديني والسياسي بين الشاب وأسرة بلانش, فوالدها هو الثري اميل مونبيه , الذي كان ينتمي للطبقة النبيلة ومن دعاة الملكية, وشغل منصب عميد كلية الفنون بالإضافة إلى أنه كان كاثوليكيا, وينتمي لأسرة صارمة في شروط الزواج.

أما المحامي الشاب فكان بروتستانتيا فقيرا, من دعاة الجمهورية بالإضافة إلى أنه كان يكبرها سنا.

وبالفعل كانت هذه الفوارق حاجزا منيعا أمام ارتباط بلانش بحبيبها، غير أنها لم تستسلم وحاولت مع أمها دون جدوى، فأعلنت العصيان وهددت والدتها بالهرب.
وطوال تلك الفترة لم ينقطع تواصلها مع حبيبها، حيث كانت تكتب له الرسائل وترميها من النافذة، فيقترب من البيت ويقز السور ثم يلتقط الرسالة وهكذا، غير أن حظ الفتاة العاثر أوقع إحدى تلك الرسائل في يد أمها، حين كانت تتمشى بجوار البيت، وكانت الرسالة تتضمن تحديد موعد لهرب الفتاة مع حبيبها.

فُزعت الأم وأخبرت الأب فحبسوها في غرفة في الطابق العلوي، خوفا من الفضيحة، والحط من سمعة العائلة، وظلت على هذا الحال في غرفة مظلمة محرومة من النور ومن الصحبة أو الوناسة، يُقدم لها فضلات الطعام، فتأكل وتتبرز وتتبول في نفس المكان، حتى مات والدها في عام ١٨٨٢م، ومع ذلك لم يتغير الوضع، حيث أصرت أمها على استمرار حبسها، وكلما سأل عنها الجيران زعمت أنها أُصيبت بالجنون.

طوال تلك الفترة - وبعد أن اختفت بلانش فجأة - كثُرت الإشاعات حول منزل آل مونبيه، فهناك من زعم أن هذا المنزل الكئيب تسكنه الأشباح، نظرا لسماع الخدم أصوات بكاء وصرخات من وقت لآخر، وهناك من زعم أن الفتاة هربت مع حبيبها، وهكذا لم يتغير الحال طوال ٢٥ عاما، والفتاة محبوسة بلا رحمة أو هوادة، حتى تم إطلاق صراحها في عام ١٩٠١م، بناء على تلك الرسالة التي وردت للمدعي العام.
أُلقي القبض على الأم لويزا وابنها المحامي المعروف مارسيل – الذي شغل من قبل محافظا لإحدى المدن الفرنسية – وواجها تهما بالتعذيب والاحتجاز بالقوة، غير أن الأم لم تتحمل الفضيحة وماتت بعد القبض عليها بخمسة عشر يوما، وبقي مارسيل يواجه الاتهام بمفرده.

وبعد أن ترافع عن نفسه وأكد للمحكمة أنه لا دخل له بهذه الواقعة وأن والدته هي المسؤولة، وأنه حاول أكثر من مرة إطلاق صراح شقيقته دون جدوى، قضت المحكمة بحبسه خمسة عشر شهراً، إلا أنه استأنف الحكم حتى قُضي ببراءته وحصل على ميراث العائلة، الأمر الذي أغضب الناس فهددوا بالانتقام منه، فخشي على نفسه وهرب بزوجته وأبنائه خارج باريس، حتى توفى بعيدا عن الأنظار في عام ١٩١٣م، وهو نفس العام التي توفيت فيه شقيقته المقهورة بلانش، بعد أن ظلت طوال ١٢ عام قابعة في مصحة بلورا الفرنسية، فاقدة للرشد، وحيدة تميل إلى العزلة، قليلة الحركة والكلام، بعد أن قضت ٢٥ عاماً بلا نور.

وظل السؤال الذي صار عصيا على الإجابة:
من الذي أرسل الرسالة للمدعي العام؟ خصوصا وأن حبيبها مات قبل إطلاق صراحها بأعوام.

وهكذا تُعلمنا هذه المأساة ألا نحكم على الآخرين من ثيابهم, فالملابس لا تُعطي قيمة للإنسان, خصوصا وأن مظاهر بعض البشر جزءا من تجارتهم.

وتظل قصة بلانش شاخصة للأبصار, لتمثل حلقة من مسلسل متواصل بطله الإنسان, حين ينزع من قلبه الرحمة ويدفن ضميره حيا, فيُذيق البشرية
– طوال حقب التاريخ - كوارث لا يُدركها الوصف, كان ضحيتها الإنسان نفسه, فالجاني هو الإنسان والضحية هو الإنسان, بعد أن تفنن في قهر بني جنسه, وتسابق في اختراع أدوات الموت ووسائل الدمار, حتى أغضب الطبيعة التي صارت تلطمه من وقت لآخر بأوبئة وفيروسات لا علاج لها, وأخرها كورونا, حين وقف تطوره أمامها عاجزا عن الحل أو الخلاص, لتكشف تلك الأزمات عن حقيقة عصية على الدحض, أن هذا الكائن ضعيف رغم تظاهره بالتجبر, وأن خلاصه الوحيد في العمل المشترك, والبناء من أجل المستقبل بروح طيبة تربت على المحبة والاحترام.

هدية عيد الأم

ليلة ممطرة, بردها قارس وأحلامها حُبلى بالكوابيس, أحالتني إلى فزع وقشعريرة جمدت شراييني وتصلبت معها أطرافي كأسياخ من حديد, حينها قطعت الليل , فتحت باب حجرتي لتطمئن, فأحسست بيد رحيمة تمتد وصدر خافق يقترب وقلب حنون يتفتح وأحضان تحتوي وذراع يهمس ويربت وثغر يمثل العالم ويغمر وجهي بالقبلات, فعاد الدفء إلى روحي وسكنت جوانحي حين لمحتُ ضوءها المشرق وحنانها الناضح عن الطيبة.

هكذا أمي تحضر في الوقت المناسب حين يكون الحضور لازما والتصرف جوهريا فلا تتأخر وتقوم بما هو مطلوب وكأنها تمثل بابا نويل الذي يحقق لنا الأمنيات دون أن يكون له طلب أو أمنية غير سعادتنا.

في كل مرة تهزمنا فيها الحياة نعود إليها ونبدأ في أحضانها محاولة جديدة بمفهوم طازج للأمور, تربت على أكتافنا وتملئنا عزيمة وحماس وثقة بالنفس حتى تُعري كفة العالم من كل مسخ وقبيح, حينها نسمع في ذيل الحزن نبرات فرح واطمئنان, ويغمرنا فيض من الأمل نابع من ثنايا نظراتها اللامعة.

إنها الأم التي تحملت وجاهدت من أجل أبنائها, تخلت عن متع الحياة لتوفر لهم عيشة أفضل, حين كان الكل نيام كانت عينيها عصية على النوم, تُربت وتُمرض وتسهر على راحتهم لا لشيء إلا لأنها كائن وُضع في قلبه الرحمة, فرضعناها منها لتُصبح للإنسانية وجود.

في كل عام يأتي اليوم الذي نُسميه عيدها, فنُسارع لإحضار الهدايا, عباءة, زهور, حذاء, حقيبة يد, قطعة حُلي, ... إلى آخره من الهدايا كل حسب قدرته وإمكانياته, غير أننا لم نفكر في أعظم هدية يمكن تقديمها لأمهاتنا في هذا اليوم.
إنها هدية "الإنجاز والنجاح", نعم أعظم هدية تقدمها لأمك هي أن ترى نجاحك في حياتك وتحقيقك لأحلامك, حينها ستشعر بأن زرعتها أثمرت وأن تعبها لم يُهدر.

كنت في زيارة لمدرسة أبنائي بمناسبة تكريمهم ضمن أوائل الطلبة، حينها لفت انتباهي سيدة جالسة في ركن بعيد تمسح دموعها خلسة، اقتربت منها بعد أن أدهشني حالها لأن الجميع من حولها فرحان بالحفل.

استأذنتها في السؤال فنظرت لي بعين يملؤها الألم والانكسار، وقالت:
"كنت أتمنى أن يُكرم أبنائي في هذا الحفل".

حينها شعرت بما بداخلها من مرارة، بعد أن بارت زرعتها، وضاع تعبها هباء بلا ثمن، فقد كانت تطمح في نجاح أبنائها ليس أكثر، كانت تتمنى أن تراهم ضمن المتفوقين، لكنهم كانوا قساة حرموها من هذا الحلم وتلك الأمنية التي قتلها فشلهم. فانطفأت لديها جذوة الأمل ولم يبق سوى رماد حلم سقيم.

هل جزاؤها قتل حلمها وهي من مهدت لنا الطريق لنحلم؟

إنها أولى الناس عرفانا بجميلها، ويوم وقوفنا في حضرتها نقبل يديها ونقول لها ها قد نجحنا، هو يوم عيدها، وذلك النجاح هو هديتها التي ترنو بشوق لتحصدها.

فلا طعم لعيد وأبناؤها فشلة يتسولون الحياة بأقدام حافية، وعقول استمرأت التجلط والتوقف عن الإنجاز، لا يُنهي غُصتها حذاء أو عباءة أو قطعة حَلي، إنما النجاح وحدة هو من يُشعرها بالعيد، ففي كل يوم ننجح فيه يكون عيد لأمهاتنا ذلك لأن عيدهن مشروط برغبتنا إن أردنا له وجود فعلينا أن نعُد العدة ونجتهد من أجل تحقيقه بعمل دؤوب ونجاح حتمي حتى لا يُلملم الغد أوراقه ويرحل، وحينها نبكي ولكن بعد فوات الأوان.